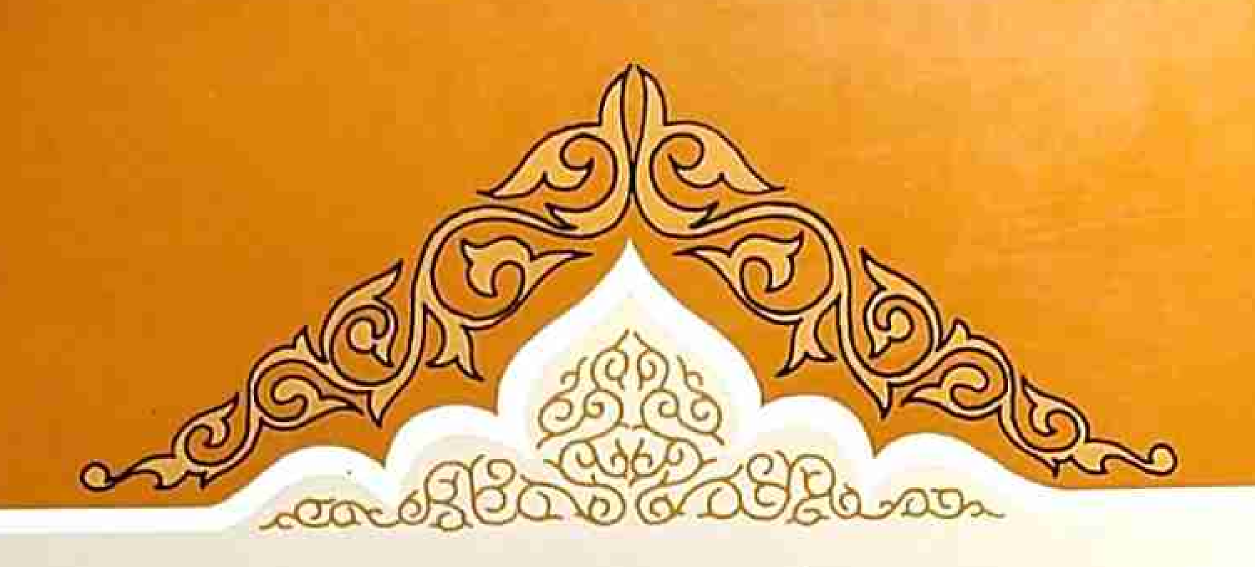


عظمة محمد خاتم رسل الله ﷺ

مجمع عظمات البشرية

مصطفى أحمد الزرقاء




عظمة محمد خاتم رسل الله
مجمع عظمات البشرية



مصطفى أحمد الزرقاء

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



دمشق - حلبوني - ص. ب. : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص. ب. : ١١٣/٦٥٠١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قامت دولة قطر مشكورة بالدعوة إلى إقامة المؤتمر الثالث للسيرة والسنة النبوية عندها، واستضافته في رحابها بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري[1]، ليقدِّم فيه العلماء والباحثون كتابات تغطِّي بمجموعها أكثر ما يمكن من جوانب السيرة النبوية وسنة صاحبها سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ببحوث كاشفة ومتعمقة، تكون موئلاً علمياً ترجع إليه الناشئة الإسلامية التي سينبتها القرن الجديد الميمون، في ظل بوادر الصحوة الإسلامية الملحوظة اليوم.

* * *

فقد ظهرت ومضات هذه الصحوة في الشعوب الإسلامية في إثر الكوارث الكثيرة التي حلَّت بالمجتمعات الإسلامية وأهلها، في عهود الاستعمار الأجنبي الذي أناخ بِكَلْكَلِهِ على العالم الإسلامي أجمع تقريباً في القرن الماضي، يحدوه طمع الأقوياء بالضعفاء، ويزكيه الحقد المترسب في أوروبا من عهد الحروب الصليبية، وقد كان ذلك الطمع الاستعماري الجشع الذي تكالب على العالم الإسلامي نتيجة لتخلفه، وتثبيتاً لذاك التخلف، مصداقاً لقول الرسول ﷺ في حديث معروف: «يوشك الأمم أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأكلة إلى قصعتها».

* * *

---

(١) عقد المؤتمر في الدوحة في شهر محرم ١٤٠٠ هـ، وقد طُبعت البحوث المقدمة للمؤتمر في عدة مجلدات، وقد رغبت إلى المؤلف الفاضل بنشر بحثه مستقلاً فأجابني مشكوراً إلى ذلك، وكتب هذه المقدمة لهذا البحث في ١/٧/١٤٠٧ هـ الموافق ١/٣/١٩٨٧ م. (الناشر).

ثم زال الاستعمار بعوامل خارجية وبقي التخلُّف، وتوالت الكوارث، حين نبتت بذور المشكلات التي زرعها المستعمرون الدهاقين الخبراء بهذه الزراعة، وقاسى منها العالم الإسلامي الأهوال، فعندئذ لاحت بوادر هذه الصحوة الإسلامية تنادي: أن لا منجاة من هذه التعاسة لهذه الأمة المتفرقة الممزقة الجَهْلاء إلا بالرجوع إلى الله وطريق الإسلام الجامع، ذلك الطريق الذي بنى فيه الأسلاف الأجداد أعظم صروح الأمجاد والحضارة الإنسانية، في كل مهيع ومنتجع ومرتاد لأمة الإسلام، التي أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس، بفضل دينها المنير، وبقيادة رسولها الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ.

فقد بيَّن لها كيف تستطيع أن تكون كذلك، وكانته فعلاً حين سلكت في حياتها - قادةً وشعوباً - الطريق الذي قادها فيه الرسول، وخلَّفها عليه، فاستمرت عزيزة قوية مهيبة، ونقلت رسالة الإسلام العامة إلى جميع أرجاء العالم، إلى أن انحرفت وانجرفت بها الأهواء إلى متاهات، فقعدت عن الواجبات الكفائية التي هي قناطر الإسلام ودعائم حياة المسلمين، بينما العدو يسير ويبني قواته العلمية والمادية، فضعف أمر الإسلام وشأنه، وتفرقت كلمة المسلمين وتمزقت صفوفهم، حتى داسهم الاستعمار بخيوله ورَجِله.

فهل تستمر الصحوة الإسلامية المباركة وتتصاعد في طريق النجاة، طريق الرجوع إلى الله، في نفوس الشعوب والحكام، وفي عقولهم وقناعتهم وسلوكهم بالفعل؟ هذا هو الأمل المنشود، والله الموفق وهو معنا ما دمنا معه غير غافلين عنه، والحبل بيننا وبينه موصول غير مفصول.

وحين جاءتني الدعوة إلى مؤتمر السيرة والسنة النبوية الثالث في الدوحة القطرية - وهي من معالم هذه الصحوة - كانت في نفسي أفكار عن موضوع رأيت من الواجب أن لا يخلو منه ذلك المؤتمر الميمون، الذي قدَّرت أن البحوث التي ستقدم فيه سوف يتجه كل منها إلى زاوية معينة من السيرة والسنة النبوية يتغلغل فيها ويتعمق، وسيخلو المؤتمر من البحث الذي تعتلج

فكرته وعناصره في نفسي، وهو: عظمة الرسول ﷺ ومقوِّماتها في المقاييس الإنسانية الثابتة للعَظَمات في الحياة البشرية على مدى التاريخ، بصورة تتناول شخصية العظيم بصورة شاملة، والمكونات الأساسية لعظمته.

وقد تهيَّبت بادىء ذي بدء اقتحام هذا الموضوع خشية أن لا أستطيع تغطية جوانبه وشعبه الكثيرة، ولكن حبي لأن أخدم هذا الجانب الذي يميز شخصية الرسول ﷺ وعظمتها عن كل ما عرف في التاريخ البشري، مما يجعل في كماله الإنساني الفريد معجزة إلٓهية، وآية ناطقة برسالته وصدقها لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - إنَّ حبي لأن أخدم هذا الجانب غلب خشيتي من التقصير فيه.

فتوكلت على الله، داعياً إياه أن ييسره عليَّ ويعينني عليه.

وإني أقدمه اليوم للقراء الكرام راجياً من فضله تعالى أن يجعلني به ممَّن تشملهم يوم الدين شفاعة سيد المرسلين وخاتم النبيين، الذي جعل الله في شخصيته، وكمالاته الإنسانية، وشريعته السمحة الغرّاء حجة قائمة على الناس خالدة إلى يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله، هادي الأمم، وقائد البشرية إلى التي هي أقوم، وعلى آله وصحبه الأخيار، الذين كانوا أمناء على خلافته، وكان نجاحهم الباهر في أقصر مدة عرفها تاريخ الحركات الإصلاحية حجة دامغة على صدق دعوته إلى الله، وأنها الطريق الوحيد للحياة البشرية الأفضل.

مصطفى أحمد الزرقا

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ لعظماء البشر ميادينَ مختلفة تبرز فيها عظَمَتُهم، ويتجلَّى فيها سُمُوُّهم وتفوُّقهم: فهناك عظماء العلم، وعظماء الحرب، وعظماء الجود، وعظماء الفلسفة، وهناك حقول كثيرة غير ذلك من منابت العظمة.

وإنَّ عظَمة العظماء في جميع منابتها تقوم على أسس هي أسباب لها كما ينبت جذع الشجرة على الجذور. وبحسب ما يكون في تلك الأسس والأسباب من كثرة وقوة تكون قيمة العظمة وشأنها وخلودها، كالجذع تكون قوته وضخامته وثباته في وجه الرياح والأنواء بقدر ما لجذوره من كثرة تغذِّيه، وقوةٍ تمسكه.

وإذا أحصينا أسباب العظمة الحقيقية وحلَّلناها نرى أنها بالمقاييس الصحيحة للحياة البشرية إنما تقوم على مقومات ودعائم، أهمها أربع:

الأولى: الصفات النفسية والأخلاق الشخصية في الشخص العظيم.

الثانية: مدى الإبداع والسمو في المبادىء والأعمال التي أتى بها.

الثالثة: مدى كفايته ونجاحه في تحقيق منهاجه الإصلاحي، أي مدى قدرته التنفيذية.

الرابعة: مدى نجاح العظيم في تكوين جيل قيادي صالح، مؤهل لحمل مسؤولية المحافظة على المبادىء ومتابعة تنفيذها.

ولا يكون للعظمة شمول واستيعاب، ولا يتحقق لها الكمال إلا باجتماع هذه الدعائم أو المقوِّمات الأربعة.

وكذلك بمقدار النقص في هذه الدعائم تنخفض درجة العظمة ويضيق أفقها.

* * *

وسنعرض فيما يلي عظمة نبينا محمد ﷺ على هذه المقاييس الأربعة، لنرى موقعها منها بدلالة الحقائق، وشهادة الواقع.

الدّعامـــة الأولى

فأما الدعامة الأولى للعظمة، وهي الخصال النفسيـة والأخلاق الشخصية، فإنَّ ما رُوي في التاريخ الثابت عمَّا كان يتحلَّى به النبي عليه الصلاة والسلام من الصفات النفسية، والشمائل والأخلاق، ينبىء بأنها كانت أعظم مثال وأنبل صورة عرفها التاريخ البشري:

فقد كان قبل النبوة مثالاً فريداً للشباب الصالح، والفطرة الكاملة السويَّة النقيَّة، حتى لقبه قومه «بالأمين». لم يعرف عنه في نشأة شبابه ـ وهو في محيط جاهلي ـ أنه شرب خمراً، أو عبد صنماً من أصنام قومه، أو أنه لَهَا لهواً فاسداً، واتبع هوى من أهواء الشباب، ولم ينسب إليه شيئاً من ذلك أحدٌ من قومه الذين أصبحوا بعد دعوته الإسلامية ألدّ أعدائه.

وكان محباً للفقراء، عطوفاً على الضعفاء، ناصراً للمظلومين، حتى إنَّه دخل في حِلف الفُضول الذي تعاهد فيه فريق من ذوي الكرم والنَّجْدة من قريش في الجـاهلية على إغـاثة الضعفـاء المظلومين، وتخليص حقوقهم التي يهضمها الأقوياء المستبدون من زعماء العشيرة.

وبعد البَعْثة وصفته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بأنه (كان خُلُقه القرآن)، أي كما جاء في القرآن العظيم من تعاليم.

وقالت أيضاً: (إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يغضب لنفسه، إلا أن يُنتهك شيء من حرمات الله، فيغضب عندئذ لله).

ومن قبل ذلك حين نزل عليه الوحي لأول مرة في غار حِرَاء، وعاد إلى بيته مرتاعاً مما رأى وسمع يرتجف فؤاده، وأخبر زوجه خديجة الخبر قالت له: (والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدوم، وتَقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق).

* * *

وبعد هذه الصورة الإجمالية العامة لأخلاقه الشخصية نشير إلى أربع شمائل معيَّنة عظيمة الأهمية، تحلَّى بها ﷺ مما يندر أن ترى واحدة منها ـ فضلاً عن توافرها جميعاً ـ في واحد من العظماء، ولا سيما ذوي السلطان والحكم منهم:

أ ـ لقد جمع الرسول ﷺ جمعاً فريداً في التاريخ بين أعلى درجات التنقية الروحية بالاجتهاد في عبادة الله تعالى، وأعلى درجات النشاط والعمل جهاداً وبناء. فكان يجتهد في التعبد عبادة خشوع ودموع وخشية من الله وحسابه في اليوم الآخر، وخلوص في التوجه إليه، وابتغاء مرضاته بالتضرع والتذلل له، صلاة وصياماً وزهداً وجوداً بالصدقات والعطايا بلا حدود. فكان يوزع كل ما يأتيه من أموال، ويَطْوي هو وأهل بيته على الطَّوَى الأيامَ المتتالية، ويعصب الحجر على بطنه من الجوع، ويقوم ليلاً في الصلاة النافلة والتهجد حتى تتورم قدماه، ويصوم الوصال يوماً على يوم دون إفطار، وينهى أصحابه عن ذلك خشية أن لا يتحملوا، ويقول لهم: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني».

وقد سألته مرة زوجه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن سبب اجتهاده في العبادة، مع أن الله سبحانه قد أمَّنه في قرآنه العظيم بأنه قد

غفر له ما تقدم وما تأخر، أي كل تقصير مما قد يكون صدر منه أو سيصدر في مدى حياته؟ فكان جوابه لها: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»، وكان يقول لأهله وأصحابه: «لو تعلمون من الله ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

وقضية تعبده وبلوغه فيه المزيد مما لا يطيقه سواه أخبارها مستفيضة مشتهرة في سيرته العطرة.

وكل ذلك الاجتهاد في العبادة لم يمنعه من أن يكون مبادراً لكل عمل في حينه الواجب أو المناسب، من الأعمال الإعدادية أو الإنشائية، إدارية وتشريعية واقتصادية وسياسية وعسكرية. فلم تكن تفوته فرصة دون أن يغتنمها بما يجب أن يملأها من عمل أو قول.

ففرصة مرور أبي سفيان بقافلة التجارة الكبرى السنوية العائدة من الشام قد اغتنمها الرسول ﷺ خير اغتنام، مع أن هجرته إلى المدينة إنما كانت في أول عهدها، ولم يكن قد بنى القوة العسكرية اللازمة للمصادمة مع الأعداء الأكثر عدداً وقوة، ولم يكن قد صحا مما أحدثته تلك الهجرة من مشكلات وبلبلة في الفكر، وفي وسائل المعيشة والحياة. فكان من النتائج الخالدة الأثر لاغتنام هذه الفرصة وعدم النوم عنها معركة بدر الكبرى، التي خضدت شوكة كفار قريش، وحطّمت بيضتهم، وأطاحت بأهم الرؤوس من صناديدهم، وبسطت الهيبة للمسلمين.

ثم بعد ذلك في معركة أحد الثأرية لما انكسر المسلمون بعد الانتصار بسبب مخالفة بعضهم لأمر الرسول في المحافظة على مواقعهم، وعاد المسلمون إلى المدينة موهنين، خشي الرسول ﷺ أن يظن الأعداء بهم الضعف فيطمعوا بهم، فبادر إلى الخروج بالمسلمين الذين لم يكادوا يضعون أسلحتهم قاصداً معسكر الكفار لاستئناف

المعركة معهم. فلما علم الأعداء بالخبر توجَّسوا وبادروا مسرعين بالرجوع إلى مكة، قانعين بما وصلوا إليه، وعاد المسلمون بقيادة الرسول ﷺ إلى المدينة، وقد استعادوا إلى أنفسهم ثقتهم وقوتهم المعنوية بعد أن جرحتها الهزيمة التي كانوا هم سببها، وكان ذلك لهم درساً واعظاً امتد نفعه على مستقبل حياتهم العسكرية كلها.

* * *

ب ـ ومن أبرز خصاله الشخصية النادرة بين العظماء ذوي السلطان مزيد التواضع والحياء والإيثار.

فكان من تواضعه ابتعاده عن كل صور الأبهة ومظاهر التعاظم التي يتميز في العادة بها الحكام والرؤساء، ويحرصون عليها أشد الحرص، وذلك على مزيد هيبته ورغبة أصحابه رضي الله عنهم في تعظيمه وتوقيره.

فكان ﷺ يتساوى مع أتباعه في المظهر والملبس والمجلس والأعمال البدنية، ويكره أن يتميز عنهم في شيء. ففي غزوة الخندق كان يحفر فيه مع الناس وينقل التراب، وفي الأسفار كان يجمع لهم الحطب حين يقومون لإعداد الطعام. وكان يدخل الأعرابي الوافد عليه إلى مجلسه بين أصحابه في المسجد، فيسألهم: أيكم محمد؟ فيشيرون إليه لأنه بينهم كأحدهم.

ـ أما حياؤه فقد وصفه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه بقوله: (كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها).

ـ وكان من إيثاره وزهده أنه يأتيه ما يملأ الوادي من الأموال والهدايا والغنائم فيوزعه كله من فوره، ويبيت ليس عنده منه شيء. ويشعر أحدهم بجوع الرسول ﷺ فيهدي إليه قَعْباً من اللبن، فيدعو إليه

أهل الصُّفَّة ـ وهم أفقر فقراء المسلمين ـ فيديره عليهم، ثم يكون هو آخر من يشرب فضلهم!!.

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (ما شبع آل محمد من خبز الشعير ثلاث ليال متوالية)، وقد توفي ﷺ ودرعه مرهونة بدَين عليه لرجل يهودي كما روى البخاري ومسلم.

وهذه الخليقة من الزهد والإيثار نادرة بل مفقودة بين الحكام والرؤساء، فإنهم اعتادوا ـ حتى في البلاد ذات النظم الديمقراطية أو الاشتراكية ـ الاستئثار من دون الناس بأفضل المساكن والمراكب وسواها من أصناف النعم، علاوة على جمع الثروات الضخمة من طريق السلطة والنفوذ.

* * *

ج ـ والثالثة من خصاله النادرة إذعانه للحق على نفسه، فقد اقترض من يهودي، فجاء يقتضيه دَيْنه، ولم يكن لدى الرسول ﷺ ما يفي به، فأغلظ اليهودي له القول، فهمَّ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنهاه النبي ﷺ وقال له: «دعه يا عمر، فإنَّ لصاحب الحق مقالاً».

ومما يتصل بهذه الخصلة الكريمة، ويندر بين العظماء ذوي السلطان، صبره ﷺ على ما يسيء ويؤذي من غلظة بعض الجهال والجفاة. وإن قصة الأعرابي الذي جاء يطلب منه العطاء، وأمسك بتلابيبه حتى حزَّ زيق القميص في عنق الرسول ﷺ، هي وأمثال لها معروفة في السيرة النبوية، وقد تحمَّل الرسول ﷺ ذلك من الأعرابي وأعطاه برحابة صدر.

* * *

د ـ وكان من أهم ما يميز سيرته المثالية بين سير العظماء التزامه

الشديد بتطبيق الأخلاقيات في السياسة التزاماً لا استثناء فيه، دون أي تناقض بين الدعوة والسلوك.

فلم ينقض عهداً مع عدو، ولم يحاول غدراً بخصم مهما كان يائساً منه ويخشى غدره، ولم يكذب في سبيل كسب نصر في معركة حربية.

وأما قوله الثابت عنه: «الحرب خدعة» فليس فيه ما ينافي هذه الأخلاق المثالية في السياسة، لأن معناه أن تخدع عدوك بطريق الإيهام دون أن تكذب، وذلك كترتيب الصفوف في المعركة بصورة توهم كثرة العدد، وكإحداث ضوضاء في ليل توهم العدو مجيء نجدة، ونحو ذلك.

ومن صور هذا الخداع الشريف للعدو أنه عليه السلام كان إذا خرج لحرب قوم يبتدىء السير بجيشه في اتجاه آخر، ثم يتحول خلال الطريق إلى الجهة المقصودة، لتعمية أخباره عن العدو. وفي كل ذلك حكمة وحسن تدبير، وليس في مثل هذا الخداع الحربي ما ينافي الأخلاق المثالية في السياسة والتدبير الحربي.

ومن أروع ما يروى في السيرة أن أحد المشركين هو عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح أسلم ثم ارتد، وافترى على الرسول ﷺ، فأهدر دمه يوم فتح مكة، وأمر بقتله أينما وجد. فلجأ إلى عثمان رضي الله عنه وكان أخاه من الرضاعة، فجاء به إلى الرسول ليبايعه، فكفَّ الرسول يده وبصره عنه ثلاث مرات، ثم بايعه بعدها. فلما انصرف قال ﷺ: «ألم يكن فيكم رجل يقوم إليه حيث كففت يدي عن بيعته فيقتله؟» فقالوا يا رسول الله: ألا أومأت إلينا بعينك؟ فقال لهم: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»!!.

الدعامة الثانية

وأما الدعامة الثانية من دعائم العظمة، وهي مدى الإبداع والسمو فيما يأتي به العظماء، فإن الرسول ﷺ له فيها أعظم الآثار. فقد بنى القواعد الخالدة للحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية، وأقام هذه الحياة في جميع ميادينها على النظم الصالحة بذاتها والمكفولة النجاح في معترك الحياة العقلية والعملية بحسب فطرة البشر. وقد أرسى جميع الأسس الإصلاحية الجديدة في أرض خواء بدءاً من الصفر، وفي جو سلبي مقاوم عنيف.

ونلخص هذه القواعد المتينة الناجحة بأنه عليه الصلاة والسلام قد أتى بالنظام الذي يجمع بين الواقع والمثل الأعلى ويوفق بينهما توفيقاً بديعاً، وينظم منافع العناصر المتضادة في الحياة، فلم يهمل أحد الضدَّين، لأن كلاً منهما قوة تفيد إذا أُحسن استعمالها في محلها المناسب.

وبيان ذلك أن الحياة في هذا المجتمع البشري المملوء بالخير والشر، وبالأخيار والأشرار تحتاج إلى عناصر متضادة: فكما يحتاج الزرع إلى الحر والبرد، وإلى الجفاف والمطر، وإلى الشمس والندى - تحتاج الحياة البشرية كذلك إلى الرحمة والقسوة، إلى اللين والشدة، إلى

الصفح والكبح، إلى العمل والراحة، إلى الحرب والسلم، إلى التواضع والاعتزاز، إلى التخيير والإجبار، إلى الموعظة الحسنة والمقامع الخشنة، وهكذا. . . .

وإن الفضيلة والحزم من الفرد والجماعة والحكام إنما يقومان على حسن استعمال جميع العناصر المتضادة، والإفادة من كل منها في المحل والوقت المناسب له، ولا يقومان على الأخذ بأحد الطرفين المتضادين من هذه الوسائل الحيوية وإهمال الآخر.

فإن الاعتماد على أحد هذه العناصر المتضادة في نظام الحياة دون ضده قد يوصل الإنسان إلى موطن لا تصلح فيه الحال إلا باستعمال ذلك الضد: فاللين الدائم يفسد النتائج، والرحمة الدائمة تنبت الفوضى، والعفو الدائم يشجع على الجريمة، والمسالمة الدائمة تطمع العدو، وهكذا. . . .

فالنبي عليه الصلاة والسلام يتميز في تاريخ البشرية وفي النبوات والمذاهب الإصلاحية بأنه قد أتى بشريعة جمعت بين هذين الطرفين: الواقع والمثل الأعلى، جمعاً عجيباً، وألفت بينهما تأليفاً بديعاً، وسخرتهما معاً لحاجات الحياة تسخيراً حكيماً، يكفل مداواة عللها، وإصلاح خللها بهما معاً، ويستخدم كلاً منهما في موقعه الضروري من حاجات الحياة.

ولننظر هذا الجمع والتسخير الحكيم في الأمثلة التالية من شريعته عليه السلام:

* * *

أ ـ قد أمر النبي ﷺ بالرحمة وعمَّمها حتى على الحيوان، وجعل في إطعام الحيوان أجر الصدقة إذ يقول: «في كل كَبِد رَطْبة أجر» ومنع تعذيب المقتول من الإنسان بحق والمذبوح من الحيوان، فقال: «إذا

قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبْحة» حتى وصل في الرحمة إلى مثل قوله عليه السلام: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض». وكان يُصغي الإناء بيده للهرة لتشرب.

ولكن إلى جانب هذه الرحمة المتناهية في محالها المعقولة شرع عكسها عند الحاجة إليه، كالقصاص وقتل المؤذين وعقوبة المجرم.

* * *

ب ـ وكذلك أمر ﷺ بالسلم والمودة بين الأفراد والشعوب، وتعارفهم وتعاونهم على الأهداف الكريمة، وجاء في القرآن العظيم: ﴿ يا أيها الناسُ إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا، إنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكم ﴾ وجاء فيه أيضاً: ﴿ وإنْ جَنَحوا للسَّلْم فاجنح لها ﴾.

ولكن إلى جانب هذا الاتجاه السلمي النبيل جاءت شريعته بالمحاربة لمن يكيد للإسلام ويبغي حربه، وأمرت ببذل الوسع في الاستعداد لمقاومته، فجاء في القرآن العظيم أمر للمؤمنين بذلك في قوله: ﴿ وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخيل، ترهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم ﴾. وقديماً قال المثل: «الحديد بالحديد يفلَح».

* * *

ج ـ وكذلك أمر عليه السلام بالتواضع للإخوان بقوله: «من تواضع لله رفعه» ولكنه إلى جانب ذلك شرع الاعتزاز على العدو المغالب، إذ قال القرآن العظيم: ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يُحبهم ويحبونه، أذلَّةٍ على المؤمنين، أعزةٍ على الكافرين ﴾ وقال النبي ﷺ: «من أعطى الذلّة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا».

* * *

د ـ وكذلك ندب الرسول ﷺ إلى العفو عن المسيء في الحقوق الذاتية الخاصة لأنه فضل ومكرمة، وقال القرآن العظيم: ﴿ فمن عَفَا وأصلح فأجْرُه على الله ﴾. ولكن الرسول ﷺ إلى جانب ذلك قد شدَّد وقسا قسوة الحزم في الحقوق العامة، فمنع العفو عن حقوق الله تعالى في إقامة الحدود، ونهى عن الشفاعة فيها.

* * *

هذه المجموعة من الأمثلة يقتطفها الناظر من ثمر جم، وهي تدل على مبلغ ما في شريعة الرسول ﷺ من تقدير لضرورة العناصر المتضادة، وعلى أن الحياة البشرية الصالحة لا تستغني بأحد الضدَّين منها عن الآخر، لأن كليهما في الحاجة العملية كالحقائق المختلفة في التطبيقات العلمية. فإذا علم الإنسان إحدى الحقائق في موطنها، وجهل الموطن الذي تنعكس فيه كان علمه ناقصاً، وقياسه خطأ.

* * *

تساؤل وجوابه:

وبعد هذه الأمثلة الناطقة قد يرد على الذهن السؤال التالي: إنَّ هذا الموقف الحكيم من العناصر المتضادة في الحياة، والاستفادة من كل منها في الموطن المناسب هو من القواعد التشريعية في نظام الإسلام.

وهذا النظام في عقيدة المسلمين وحي من الله لرسوله، وليس من وضع الرسول وتدبيره وتقديره، لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا سيما في أحكام الشريعة، ﴿ إنْ هو إلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾، وبعض هذه القواعد جاءت به نصوص القرآن المنزَّل، وليس مصدره السنة النبوية وحدها.

فما وجه اعتباره من جوانب عظمة الرسول ﷺ وهو ليس من صنعه؟.

والجواب عن ذلك أننا إنما نعرض هذه الجوانب من عظمة محمد ﷺ بالنظر الذاتي إليها، من حيث كونها حقيقة واقعية في تاريخ البشرية جاء بها إنسان مصلح رائد قائد، بقطع النظر عن مصدرها.

فالمسلم يرى فيها العظمة من جهة مصدرها الإلٓهي بحسب عقيدته، ومن جهة من اختير لحملها وأدائها، فإنه لا يمكن تحميل المهمات الجسيمة للضعفاء أو للعاديين من الناس، وإلاّ باءت بالفشل والخيبة، فعظائم الأمور عهدة العظماء.

وأما غير المسلمين ممن يعتقدون أن هذا النظام الإصلاحي العظيم الذي أتى به محمد هو من صنعه، فلا مجال لهذا السؤال منهم، إذ لا إشكال في إسناد العظمة لمن صنع الشيء العظيم.

وهذه المزية في قواعد الشريعة التي أتى بها النبي ﷺ، أي الاستفادة من جميع العناصر المتضادَّة كلٌّ في الموطن المناسب له، إذا أسميناها بالتوازن في نظام الإسلام، وجدناها متمثلة في ذات الرسول ﷺ أصدق تمثل، إذ كان في جميع أحواله ومواقفه وأخلاقه مثالاً حياً لهذا التوازن، فقد استخدم عليه السلام في سلوكه العملي كلاً من تلك الأضداد في الموطن الذي يناسبه أو يقتضيه:

فالمزح والجدّ، واللين والشدة، والرحمة والقسوة، والتواضع والترفع، والزهد والاستمتاع، والمحاسنة والمخاشنة، والمسايرة والتأبي، والمسارعة والتأني، والوداعة والتنمُّر، والحلم والغضب، والملاطفة والمجابهة، إلى كثير غير ذلك من المتضادات، كلها موجودة في سيرته

وسلوكه، يستعمل كلاً منها في محله المناسب حيث يكون هو من مكارم الأخلاق، وحسن التقدير، وحكمة السلوك، ومقتضى الحال، ويكون ضده هو الخطأ أو سوء التقدير.

* * *

ولنعرض في هذه الناحية بعض صور من هذا السلوك الحكيم المتوازن في الأمثلة التالية:

أ ـ ثبت في سيرته ﷺ أنه كان يمزح في بعض الأحيان والمناسبات، ولكنه لا يقول في مزاحه إلا الحق والصدق. من ذلك قوله لامرأة مسنَّة: «لا تدخل الجنة عجوز»، فلما ظهر عليها الحزن والاكتئاب ضحك وبين لها أنها لا تدخل وهي عجوز، بل يعود إليها شبابها فتدخلها شابة.

* * *

ب ـ كان عليه الصلاة والسلام يتنزل إلى مستوى الأطفال فيداعبهم بما يسرهم. وكان يضع ظهره لسِبْطَيه: الحسن والحسين في طفولتهما ليركبا عليه، ويقول لهما «نِعْمَ الجَمَلُ جملُكما، ونعم الحِمْلان أنتما». وكان يصفهما بأنهما ريحانته من الدنيا، ولكنه حينما وضع أحدهما في فمه تمرة من تمر الزكاة ـ وهي محرمة على الرسول وآله ـ لم يمكِّنْه من ابتلاعها، بل استخرجها من فمه.

* * *

ج ـ كان النبي ﷺ أرحم الناس، وقد وصفه القرآن بأنه: ﴿ بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ ﴾، وصحَّ عن النبي أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وروى ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فرأينا حُمَّرة معها فرخان، فأخذنا فرخَيْها، فجاءت الحُمَّرة تعرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها»[1].

وروى الشيخان ـ البخاري ومسلم ـ أنه ﷺ قال: «بينما كلب يطيف بركيّة ـ أي بئر ـ قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بَغِيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها ـ أي خفها ـ فاستقت له به فسقته، فغُفِر لها به».

فهذه الرحمة ورقَّة القلب والرفق كان إلى جانبها في نفس الرسول ﷺ الشدّة والبأس في الأمور التي تفسدها الرأفة، فقد قاتل الأعداء المقاومين للدعوة وصمد لهم وقتل منهم، وعفا عمَّن توقع أنه قد يصلحه العفو. وكان في المعارك الحربية إذا اشتد البأس يكون هو الأقرب من أصحابه إلى صفوف العدو وشوكته، كما روى علي رضي الله عنه.

ولما سرقت المرأة الشريفة المخزومية، وأراد بعض أصحابه أن يتشفَّع فيها استنكر ﷺ منه ذلك، وأطلق كلمته الخالدة المشهورة: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايْمُ الله لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لَقطعتُ يدها».

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى[2].

* * *

---

(١) رياض الصالحين للنووي، الحديث: ١٦٠٧.

(٢) رواه مسلم.

د ـ جمع النبي ﷺ في سلوكه الفعلي بين التوكل على الله وبين الأخذ بالأسباب المادية العادية جمعاً حكيماً يوضح المقصود بالتوكل في شريعة الإسلام، ويميِّز بينه وبين الإهمال والكسل والتواكل.

ففي الهجرة اتخذ عليه السلام كل وسائل التكتم والتخفِّي والتمويه في سلوك الطريق إلى المدينة لتضليل الأعداء عن مساره وآثاره إذا تبعوه، وتوكل على الله تعالى في إنجاح هذه الوسائل التي يستطيعها، وتيسير ما لا يستطيعه منها، وإزالة العوائق المحتملة التي لا يملك هو القدرة على منعها أو إزالتها.

ثم في غزوة أحد ظاهر عليه السلام بين دِرْعين ـ أي لبس إحداهما فوق الأخرى ـ زيادة في التوقِّي من سلاح العدو.

وكذلك لما سأله رجل: هل يترك ناقته مطلقة بلا عِقال، ويتوكل على الله في حفظها، قال له الرسول ﷺ: «اعْقِلْ وتوكل». وهكذا كان فعله وتعليمه أكمل صورة وأحكمها في الجمع بين اتخاذ الأسباب المادية كافة دون تهاون، وبين التوكل على الله فيما وراء ذلك مما هو فوق قدرته من عوامل النجاح.

إنَّ هذا التوازن الذي يبلغ الغاية والنهاية في دقَّة التمييز بين الأحوال المختلفة، وتوزيع المواقف المتضادة عليها، بحسب طبيعة كل منها وظروفها ومقتضياتها بالحكمة والاعتدال، كيلا يصبح التسامح فساداً، والرأفة ضعفاً، وقلة المبالاة خللاً ومضيعة للحقوق والواجبات والمصالح ـ هذا التوازن في شخصية الرسول ﷺ وسلوكه كان صورة تطبيقية دقيقة لذلك التوازن في الشريعة الكاملة التي جاء بها.

الدّعامـــة الثّالثة

وأما الدعامة الثالثة من دعائم العظمة، وهي القدرة التنفيذية، أي مدى كفاية العظيم في تحقيق منهاجه الإصلاحي، فالمقصود بها القوة على نشر الدعوة الإصلاحية وتطبيقها في المحيط المحارب لها، وإدخالها إلى القلوب المتحجِّرة والأدمغة الصماء حتى تلين وتقبلها، مع تحمل ما في سبيل ذلك من أعباءٍ ومصاعب، وأهوال ومتاعب.

فالواقع أنَّ قدرة التنفيذ وقوته لدى النبي ﷺ منقطعة النظير، ولا يعرف الإنسان مداها إلا بقدر ما يعرف من حال المحيط الذي قام فيه رسول الله ﷺ بدعوته.

فقد لقي عليه السلام من أذى قومه وافترائهم عليه وسخريتهم به ما لا يصبر عليه أحد، وتآمروا بقتله مرات فأنجاه الله، واستمر حتى يئس منهم. ولكنَّ هذا اليأس لم يصرفه عن دعوته كما ينصرف اليائسون ويقعدون، بل هاجر إلى قوم سواهم وأسس لدعوته قوة، ثم كرَّ عليهم بالحق قوياً بعد أن صدُّوه عن الحق ضعيفاً، وقلب جزيرة العرب من بؤرة ضلالٍ، وجحيم فساد، إلى مركز إشراق نفذت أشعة أنواره إلى الخافقين، وعمَّت العالم.

وسنشير فيما يلي إلى أهم ما تم على يد الرسول ﷺ من تنفيذ

وإنجاز، قلباً وهدماً، وتأسيساً وبناءً، وتصحيحاً وتغييراً في سبيل إقامة الحياة الإنسانية على الطريق الصحيح السوي الذي يسود فيه الأمن، ويتحقق العدل، وينمو العقل وتنتعش مكارم الأخلاق.

* * *

أ ـ كان المجتمع العربي جاهلياً تعبد فيه الأصنام عبادة عمياء، وتعشش في عقول أهله الخرافات. فهدم بدعوة الإسلام الذي جاء به تلك الأصنام جميعاً، وطهَّر البيئة العربية منها كما طهَّر عقول العرب ونفوسهم من عبادتها ومن سائر الخرافات، وأقام مكانها عقيدة التوحيد على أساسين.

الأول: الإيمان بالله خالق الكون، الأحد الصمد، المتصف بالكمالات المطلقة والعلم المحيط بعوالم الغيب والشهادة، لم يلد ولم يولد، ولا شريك له، ولا معبود سواه، وليس كمثله شيء، وهو على كل شيء قدير، ثم الاستدلال على كل ذلك بالدليل العقلي الذي يدور عليه الحوار القرآني.

الثاني: الإيمان باليوم الآخر، يوم الحساب والثواب والعقاب على الأعمال في الحياة الدنيا من خير وشر، والإيمان بسائر كتب الله المنزلة قبلاً، وبرسله السابقين.

وكان هذا الانقلاب الجذري الذي نسف الشرك والوثنية والخرافات نسفاً، وحرر العقل العربي، وانتقل في أقصر وقت من المجتمع العربي إلى سائر الأقطار والأمم أساساً للحضارة الإسلامية التي غطَّت وجه المعمورة كلها بآثارها الخالدة أو بظلالها.

* * *

ب ـ قام بتكوين مجتمع إسلامي جديد بمفاهيم ومقاييس اجتماعية

جديدة، العبرة والقيمة فيه وفي قياداته للأهلية والكفاية والأمانة والتقوى، لا للعصبية القبلية والأنساب (كما كان في المجتمع الجاهلي السابق) فيترابط أبناؤه ويتعاطفون بالإخاء الإسلامي ثم الإنساني، وهم فيه جميعاً كأسنان المشط أمام الحق والنظام.

فهذا زيد بن حارثة ـ وهو مولى كان مملوكاً فأُعتق ـ يولِّيه الرسول ﷺ قيادة الجيش في غزوة مؤتة إلى الروم في بلاد الشام، وكانت من أعظم الغزوات خطراً، وبُعْد شقّة، وعِظَم مشقة، وكان فيها تحت إمرة زيد: جعفر بن أبي طالب ابن عمِّ رسول الله، من ذؤابة قريشة وذروتها نسباً وشرفاً ومركزاً اجتماعياً، وفيها أيضاً خالد بن الوليد المخزومي، وناهيك بخالد من هو! فتولية عبد مُعْتَق إمارة جيش خطير فيه أمثال هؤلاء من سادات العرب يعتبر تغييراً في التقاليد الجاهلية يتجاوز حدود الخيال.

ثم هذا أسامة بن زيد بن حارثة بعد ذلك يولِّيه الرسول ﷺ قيادة جيش الغزوة الثانية إلى مؤتة، وفي الجيش تحت إمرته من كبار الصحابة أبو بكر وعمر، وهو شاب حَدَث السن[1].

ثم لما حال دون خروج الجيش وفاة الرسول ﷺ كان من أول أعمال خليفته الأول أبي بكر بَعْث جيش أسامة، وخرج أبو بكر الخليفة في وداع الجيش وقائده الشاب إلى ضواحي المدينة، وكان أبو بكر يمشي راجلاً في ركاب القائد الشاب يودِّعه ويوصيه ويأبى عليه أن يترجَّل ويماشيه.

وهذه زينب بنت عمَّة الرسول ﷺ من أعالي قريش[2] نسباً وشرفاً

(١) لم يثبت أن أبا بكر وعمر كانا في بَعْث أسامة. (الناشر).
(٢) زينب رضي الله عنها ليست قرشية وإن كانت أمها قرشية، بل هي من بني أسد بن =

يزوجها من زيد بن حارثة مولاه المُعْتَق. وكان كل ذلك وأمثاله أبعد من مستحيل في العهد الجاهلي.

وهذا سلمان الفارسي، وقد دخل تحت الاسترقاق في البيئة العربية، وامتلكه أحد يهود المدينة حتى يحرر نفسه بالمكاتبة على مبلغ من المال أداه لسيده اليهودي بمعاونة الرسول ﷺ، فيوليه عمر رضي الله عنه في خلافته الإمارة على مدائن كسرى.

وكل هذا السلوك الذي قلب مفاهيم العرب وتقاليدهم في العنصرية والعصبية القبلية. والطبقية إنما كان تطبيقاً عملياً لقول القرآن العظيم: ﴿ إنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكم ﴾ وقول الرسول ﷺ: «من استعمل رجلاً من عصابة ـ أي ولاه عملاً على قوم ـ وفيهم من هو أرضَى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

وواضح أنَّ المقصود ما إذا كان الذي ولَّاه يعلم بوجود من هو أصلح منه. وقال عليه السلام أيضاً: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيّته إلا حرم الله عليه الجنة»(١). وأيُّ غش للرعية أعظم من تولية أحد عملاً من المصالح العامة، مع العلم بأن هناك من هو خير منه وأصلح لهذا العمل؟

* * *

ج ـ ومن التغييرات العظيمة التي حوَّل بها الرسول ﷺ المجتمع الجاهلي عن تقاليده السيئة الراسخة تغييره وضع المرأة ومركزها الاجتماعي فيه:

= خزيمة، وكانت أسرتها في مكة حليفاً لبني عبد شمس. (الناشر).

(١) رياض الصالحين، الحديث: ٦٥٢.

فقد كانت المرأة قبل الإسلام ـ إلا ما ندر ـ أشبه بالمتاع: يُنتفع به وليس له حقوق. ولا يُعرف قبل الإسلام مجتمع أو نظام صان المرأة وضمن لها حقوقها الإنسانية وحريتها الحقوقية، وركز وضعها الصحيح في المجتمع تركيزاً تشريعياً وعملياً، وحفظ كرامتها أماً وزوجة وبنتاً، مع مراعاة حقيقة ما تقتضيه الفروق الطبيعية بينها وبين الرجل في توزيع الوظائف، كما فعل محمد ﷺ في نظام الإسلام. وكان تحقيق هذا المركز القانوني والاجتماعي للمرأة في تلك الظروف وملابساتها وتقاليدها العمياء، وفي فترة قصيرة ، أشبه بمعجزة.

* * *

د ـ كان المجتمع الجاهلي فوضى بين القبائل، فكوَّن رسول الله ﷺ منهم دولة إسلامية على أسس جديدة كل الجدة، لها خزينتها وأجهزتها المتنوعة من إدارية واقتصادية ومالية وسياسية وعسكرية وسواها، يضبطها جميعاً نظام شرعي متكامل مرن، يتمشى مع اختلاف الظروف الزمانية والمكانية، ولا ينبو ولا يضيق عن حاجة.

* * *

هـ ـ أشاد الرسول ﷺ بشأن العلم أيّما إشادة، وزاد علم الشريعة تخصيصاً بالتنويه به والتوجيه إليه لأنه النبراس الذي يضيء طريق الحياة الصحيحة، والنظام والسلوك الإنساني.

ثم رفع الرسول ﷺ مكانة العلماء، وحضَّ على نشر العلم بالتعليم والتعلُّم بدءاً من القراءة والكتابة حتى التفقه والرسوخ، وأعلن تحريم كتمان العلم، وهدَّد بالعقوبة على الامتناع عن التعلُّم والتعليم.

وقد كان لهذه الموجة الإصلاحية ومدِّها أثر خالد في التاريخ اللاحق أنار وجه الأرض بالعلوم والمعارف الإسلامية.

* * *

هذه لمحة إجمالية عن جوانب مهمة من القدرة التنفيذية في تحقيق المنهاج الإصلاحي الذي أتى به ودعا إليه وقام على تنفيذه محمد ﷺ، لم نعمد فيه إلى الاستقصاء، وإنما أردنا إعطاء صورة ذات ملامح تكفي للتقدير والحكم في مدى العظمة من هذه الناحية.

وكم من دعوة حق خيِّرة نيِّرة دُفنت في مهدها لأن داعيتها لم يكن مؤهلاً بالقدرة والكفاية لتحقيق ما يدعو إليه فعلاً، وتنفيذ منهاجه الإصلاحي.

هذا، ومن يريد أن يقدِّر عظمة النبي عليه السلام من هذه الناحية التنفيذية حقَّ قدرها؛ فلينظر فيما يلاقيه المصلحون في كل عصر ومصر من بني قومهم الذين يجمعهم وإياهم دين واحد وأسس متفق عليها. فلا يكاد يقوم مصلح ـ ولو كان حاكماً ـ بتنفيذ خطة إصلاح حتى تصطدم بالمطامع والمنافع الفردية التي تتعارض مع منهاج الإصلاح فتقضي عليه في مهده.

هذا ما يلاقيه المصلحون في نواحٍ فرعية بسيطة من عوائق التنفيذ القاهرة، فما بالك بتنفيذ شرع جديد يقلب الأوضاع والعقائد الوثنية، والعادات والأخلاق والتقاليد المستحكمة في جميع نواحي الحياة العقلية والعملية، رأساً على عقب، في صميم الجاهلية الجهلاء وبين الزعامات الفاسدة، حتى أنشأ في نفوس من كانوا يئدون البنات ويعبدون ما يصنعون طهراً كطهر الملائكة، وهمة في إحياء الحق ووأد الباطل كانت كالغيث العميم رحمة ونتاجاً.

الدّعَامَـــة الرابعَة

وأما الدعامة الرابعة والأخيرة من دعائم عظمة العظماء، وهي مدى نجاح المصلح العظيم في تكوين جيل قيادي صالح للحفاظ على خط الدعوة ومتابعة تنفيذ مبادئها، فإنها قضية الخلافة التي يتوقف عليها استمرار حياة الدعوة وطول عمرها، وهي من الأهمية والشأن بمكان.

ذلك أنه لا يكفـي أن يكون العظيم قد حقَّق دعوته، وقدر على تنفيذها وتطبيق مبادئها فعلاً في حياته، لأنها عندئذ تموت بموته أو بانقراض الفئة التي تلقتها منه وتأثرت به، ويكون عمرها قصيراً لا يعدُّ شيئاً يذكر في مدى التاريخ.

فلا بد لتوطيد دعائم العظمة ورسوخها من أن يكون العظيم قد هيأ بحكمته واهتمامه وحسن تربيته لأتباعه جيلاً متفهماً لأسس الدعوة، متشبِّعاً بها، بصيراً بأهدافها البعيدة، وبأبعـادها وبـامتداداتهـا، مؤمناً بمسؤوليته عن صيانتها من التغيير والتشويه، صالحاً لنشرها ونقلها إلى الأجيال اللاحقة، لتستمر حياتها، ويطول عمرها، وتنتفع بها البشرية أطول ما يمكن.

إنَّ إنشاء هذا الجيل القيادي الصالح لهذه الخلافة هو بيت القصيد في كل مذهب إصلاحي وكل دعوة، وبالتالي في عظمة كل عظيـم.

وقد كان لرسولنا محمد ﷺ في هذا الشأن موقع كبير لم يكن مثله أو ما يدانيه لأي عظيم من عظماء التاريخ البشري. فقد ربَّى جيلاً قيادياً منقطع النظير في مقوِّمات خلافة الدعوة والتضحية في سبيلها، وإيصالها إلى أجيال قيادية متعاقبة تشعر بمسؤوليتها عنها.

فشهادة الواقع كافية إلى اليوم فيما بلغته دعوة الإسلام على أيدي الجيل الأول الذي أنشأه الرسول ﷺ، وأيدي الأجيال المتعاقبة التي كان كلٌّ منها خَلَفاً لسابقه في حمل المسؤولية، من خلفاء حكام (رعاة)، ومن رعايا مجنَّدين لأداء واجب الدعوة وملء ساحتها.

ومن يقرأ تاريخ الصحابة الأول، وما كان منهم في جمع القرآن وصيانته في عهد الخليفة أبي بكر أولاً، ثم في عهد عثمان ثانياً، وما بذل في سبيل ذلك من عظيم الجهود، ثم ما كان من حفظ حديث الرسول ﷺ الذي هو الأصل الثاني لشريعته، ونقل هذا الحديث، ثم تدوينه وتثبيته وتحقيقه، وما يرى في ذلك من عجائب الأخبار والأعمال، من يقرأ ذلك تأخذه الدهشة ويكاد يظن أن ما يقرأ أشبه بالخيال، وما هو إلا حقائق ووقائع عجيبة مذهلة، نتيجة للهمم التي تفلُّ الحديد، والمنبعثة من فرط الشعور بمسؤولية الحِفاظ على الدين ونشره، لدى أولئك الجبال من الرجال الذين ربَّاهم وخرَّجهم أولئك الأصحاب من التابعين، ثم من تابعهم جيلاً بعد جيل، مما لم يعرف له مثيل في تاريخ المذاهب الفكرية والفلسفية، أو الدعوات الإصلاحية، أو النبوات.

والشواهد والأمثلة على ذلك معروفة مستفيضة فيما حفل به سجل التاريخ الإسلامي، ولا سيما في عصور المدِّ والازدهار في مشارق الأرض إلى الصين، وفي مغاربها حتى المحيط الأطلسي، مع امتداداتها شمالاً في أوروبة، وجنوباً في إفريقية.

ولينظر في ذلك من يشاء الأمثلة الباهرة من أعمال الأجيال في نقل الحضارة والثقافة الإسلامية المتميزة بطابعها، ثم في فتح آفاق العلوم الكونية. وذلك كله نتيجة للعقيدة الإسلامية القائمة على العقل، والشريعة القائمة على العدل.

* * *

هذا ويظهر من تتبع السيرة والسنة النبوية أنَّ الرسول ﷺ كان يحرص كثيراً على أن ينمي في أصحابه خصلتين من أهم ما يتوقف عليه نجاح الدعوة واستمرارها، أولاهما من الأهداف، والأخرى من الوسائل، وهما:

١ ـ الحرص على هداية الغير.
٢ ـ محبة الجهاد في سبيل الدعوة.

ـ فأما الأولى، هداية الغير، فقد وجَّه إليها الرسول ﷺ صحابته في مناسبات وأحاديث كثيرة، من أصرحها وأشهرها قوله لعلي رضي الله عنه: «لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النَّعَم».

وحُمْرُ النَّعَم تعبير عن أنفَس الأموال التي كانوا يقتنونها، وهي نوع من الإبل نفيس أصيل جميل ثمين، وهذا التعبير بمثابة قولنا: خير من الدنيا وما فيها.

وليتأمل في كلمة (رجلاً واحداً) وما فيها من دلالة على أهمية العناية بالفرد في التربية والتوجيه، وأنَّ هداية الغير إلى الصواب والخير في ذاتها لا يعادلها ثمن مهما قلَّ عدد المستفيدين المستنيرين بها.

ويتصل بهذا الموضوع قول الرسول ﷺ في حديثه المشهور: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته...».

وما عـدَّد فيه من أصناف الرعاة ومسؤولياتهم، وفي رأس القائمة الإمام. حتى لم يبق أحد من أفراد المجتمع الإسلامي يستطيع أن يقول لنفسه: إنني من الرعية غير مسؤول عن سواي، والإمام هو المسؤول عنِّي وعن سواي. بل إنَّ كل فرد في الإسلام هو رعية وراع في وقت واحد. فكما أن غيره مسؤول عنه في أمور، هو أيضاً مسؤول عن غيره في أمور. ومن أهم ما تتعلَّق به المسؤولية عن الغير هدايتُه إلى الحق والخير والصواب، لأن هذه الهداية أساس لاستقامة طريق حياته كلها.

ومن هنا تفرَّعت مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي حملها الإسلام على كل فرد مكلَّف في المجتمع، وأكَّد عليها القرآن والرسول تأكيداً شديداً.

ـ وأما الخصلة الثانية التي حرص الرسول ﷺ على تنميتهـا في أصحابه الذين سيخلفونه في متابعة دعوته، وهي محبة الجهاد والاستعداد الدائم له فهي درع الإسلام، والوسيلة الوحيدة لحماية دعوته وبقاء طريقها مفتوحاً. وذلك لأنَّ دعوةَ الإسلام في عقيدة المسلم رحمةٌ للناس أجمعين، وهي آخر رسالات السماء إلى الأرض، فيجب أن يبقى طريقها مفتوحاً، وإن يكن على أساس أنه: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾.

فإن فقدت الدعوة دِرْعها الواقية قتلها الأشرار الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان. وعندئذ ينقطع حبل الهداية الذي هو حجة الله على الناس، لاختتام الرسالات الإلٓهية.

فلذا ركز القرآن العظيم والتوجيه النبوي على الجهاد في سبيل الله والدعوة إليه أعظم تركيز في واجبات المسلمين ومسؤولياتهم بأجيالهم المتعاقبة، وحبَّبه إليهم بما وُعدوا عليه في الآخرة من أعظم الثواب،

حتى كان الصحابة يتمنَّى أحدهم الشهادة في الجهاد، ويغتمّ ويعدُّ نفسه سيء الحظ إن لم ينلها.

وقال الرسول ﷺ: «الجهادُ ماضٍ إلى يوم القيامة».

ونصوص القرآن والحديث النبوي حول الجهاد تكاد بكثرتها وقوة تأكيدها توحي بأنه أعظم الواجبات الإسلامية شأناً بعد الإيمان، وأن مصير المجاهدين، ولا سيما من يُستشهد منهم، أفضل مصير عند الله في الجنة. وكان الرسول ﷺ نفسه يتمَّنى ويدعو الله أن يرزقه: «عيش السعداء، ونُزُل الشهداء».

فبتكوين هذا الجيل القيادي من الصحابة الذين ربَّاهم الرسول ﷺ، جيل الخلافة والمتابعة الذين غرس في نفوسهم الحرص على هذين الأمرين الأساسيين: هداية الغير، والاستعداد للجهاد في سبيل الله بأوسع معانيه، بذلك تمَّت لمحمد ﷺ الدعامة الرابعة والأخيرة من دعائم العظمة ومقوماتها على أكمل وجه، وأصبح أتباعه اليوم يعدُّون بمئات الملايين.

* * *

أمور أساسية في طريق تكوين الجيل القيادي:

إنَّ تكوين الجيل القيادي الصالح لخلافة الرجل العظيم في الحفاظ على ما بنى، وتنفيذ ما خطَّط، وفي متابعة دعوته واستمرار حياتها من بعده، ليس بالأمر الهيِّن، بل هو أشق وأهم أعمال العظماء، وبه تتميز درجات العظمة.

فهو يحتاج إلى بصيرة وحكمة ومعرفة بطبائع الناس وأخلاقهم، وحسن تحليل للمواقف والظروف والمناسبات التربوية، وإلى فراسةٍ قوية

في تحليل خصائص الأفراد ومعرفة قابلية كل منهم، ثم إلى قوة حجة وقدرة على الإقناع، لأن القناعة العميقة هي الأساس لصدق الالتزام بالمبادىء والأفكار، وللدفاع عنها بإخلاص وتفانٍ، وللتضحية في سبيلها. وقد أوتي الرسول ﷺ من كل هذه الخصائص مجتمعة ما لم يتوافر في غيره.

ويبرز في طريق تربية الأجيال القيادية ثلاثة أمور هي من الأهمية بمكان:

١ ـ العناية بتكوين الفرد، وعدم الاكتفاء بالتوجيه الجماعي الجماهيري، فإنَّ من المقرر أن التربية البنَّاءة ذات الحصيلة الثابتة في تكوين الجيل الصالح هي التي تبني الأفراد فرداً فرداً، لأن الفرد إذا نشأ نشأة سوية واعية مضمونة الاتجاه السليم السديد، كان هو نواة ذات نتاج صالح موجِّه، وذات تأثير كثير في أسرته، وفي غيرها من الرفاق والمحتكين وذوي العلاقة والتكتلات العادية، وفي شتى المناسبات. فصلاح الجماعات الكبرى إنما هو بصلاح الأفراد الذين تتكون منهم، والعكس بالعكس، كالبنيان فإنَّ قوته بقوة أساسه ولبِناته، لا بشكله الجميل الظاهري وحسن هندسته الخارجية.

* * *

٢ ـ حسن اغتنام الفرص التربوية، والظروف المناسبة التي يكون فيها التوجيه والموعظة والتوعية أبلغ، والاستعداد النفسي للتلقي أكبر. فكم من فرق بين أن يُراق ماء السقاية على صخر لا يتسرب إلى داخله الماء ولا يتشربه، وبين إلقاء هذا الماء على تربة متعطِّشة فتتشربه بنَهَم، وتسترطب به. هذا مَثَل ما يُلقى من التربية والتوجيه في المناسبات والظروف الملائمة للتلقِّي والتقبل، أو غير الملائمة.

وكلا هذين الأمرين ـ أعني الاهتمام بالفرد واغتنام أحسن المناسبات للتوعية ـ كانا من أبرز ما يلحظه الدارس لطريقة الرسول ﷺ في التوجيه والتربية، وشواهده في السيرة والسنة النبوية مستفيضة.

من ذلك مثلاً: قصة الرجل الذي رآه يسأل الناس الصدقة في المسجد وهو قادر على العمل، فسأله الرسول ﷺ عمَّا لديه في بيته، فلم يكن لديه سوى حِلْس (بساط) يفترشونه ويلتحفونه، وقدَح من خشب يشربون به. فأمره.. بإحضارهما، وباعهما بالمزاد بدرهمين، وأمره أن يشتري بأحد الدرهمين طعاماً لأهله، وبالآخر قدوماً فيحتطب به من البرية، ويعود إليه بعد خمسة عشر يوماً.

فلما عاد كان قد وفَّر مما باع من الحطب بعد نفقته ونفقة عياله خمسة عشر درهماً، فعندئذ (لا قبل ذلك) لقَّنه الدرس النافع البليغ بقوله له: «هذا خيرٌ لك من أن تأتي يوم القيامة والمسألة ـ أي طلب الصدقة ـ نكتةٌ سوداء في وجهك»(١).

* * *

٣ ـ التوجيه إلى التزام المداومة على العمل الواجب، وكل عمل مطلوب بنَّاء.

والمقصود بالمداومة ليس هو الدأب الشاق، بل عدم الانقطاع، لأن العمل الدائم وإنْ قلَّ ما يؤدَّى منه في المرة الواحدة، هو الذي يعوّل على حصائله المستمرة، بعكس العمل الدافق الذي يحصل من فورة قوية لا يمكن دوامها، إذ تكون نتيجته الحتمية هي الانقطاع والزوال. وهذا ما نبه إليه الرسول ﷺ بقوله: «أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه

---

(١) سنن ابن ماجه في (باب بيع من يزيد).

صاحبه وإنْ قلَّ». ذلك أن المداومة تجعل من القليل كثيراً كثيراً، فالجبال إنما تتكون من حبات الرمال، والبحار من قطرات الماء.

* * *

هذا، وأخيراً طلع على العالم قبل عام تقريباً كتاب العالم الأمريكي (مايكل هارث) الذي اختار فيه أعظم مائة شخص ممن ظهروا وأثَّروا في التاريخ، ورتَّب ذكرهم في كتابه هذا بحسب مرتبة كل منهم في مقياس العظمة الذي بنى عليه المؤلف تقديره، وكتب خلاصة عن كل منهم تبين وجه عظمته، والسبب الذي جعله يضعه في المرتبة التي وضعه فيها.

وقد جعل المؤلف اسم محمد ﷺ في رأس قائمة المائة، واعتبره أعظم العظماء في تاريخ البشرية.

وقد دلَّ الكتاب على سَعَة اطِّلاع المؤلف، ودقَّة تحليله إلى درجة تثير التعجب والإعجاب.

ولكن ما صنعه المؤلف المذكور هو غير هدفنا في هذا البحث. وذلك لأنه ـ كما صرح هو نفسه به ـ لم يتخذ قيمةَ الأعمال التي أتى بها هؤلاء المائة، وكمالاتِهم الشخصية مقياساً لعظمتهم، فلم يشأ أن يدخل في باب هذا التقويم لصعوبته ووعورته ومشكلاته، فيما يبدو، وإنما نظر إلى درجة التأثير الذي أحدثه الشخص في العالم، ومدى دَخْله هو في هذا التأثير وسَعَته، سواء أكان ما أتى به خيراً للبشرية، أو شراً في الحقيقة والواقع.

فمحمد ﷺ انطبق عليه مقياس هذه الناحية من العظمة، وكان له فيها القسط الأكبر، فكان فيها أعظم العظماء.

لكننا أردنا بهذا البحث أن نعرض العظمة في مقوماتها الذاتية لا في درجة تأثير العظيم فقط، وأن نقوِّم ما تتكون منه عناصرها في المقياس الصحيح للحياة الإنسانية المُثْلى التي لا انحراف فيها ولا مساوىء، لتكون نموذجاً يُحتذى للكمال البشري والحياة الصالحة الخيِّرة، وهذا ما وجدنا أن نبينا محمداً ﷺ قد استجمع فيه دعائم العظمة كلَّها مما تفرَّق وتوزع بين عظماء البشر، فكانت عظمته ﷺ جماع العظمات من الوجهة الواقعية التاريخية، وإن لم ينظر إلى صفة النبوة التي ألقاها الله عليه وأيَّده بها في عقيدة المسلمين.

فالعظيم من رجال التاريخ إنما يشتهر غالباً في ميدان واحد أو اثنين من ميادين العظمة. فقد يشتهر أحد الفاتحين بفتحه، أو أحد الشجعان بشجاعته، أو أحد المخترعين بفرط ذكائه الاختراعي، أو أحد العلماء الحفَّاظ بوفور علمه وحفظه، أو أحد الأسخياء الأجواد بفرط أريحيَّته وجوده، أو أحد الخطباء ببراعة بديهته وبلاغته، إلى غير ذلك. . . .

على أنَّ كثيراً من هؤلاء العظماء قد يكونون غلاة في الناحية التي برزوا فيها غلواً يؤدي إلى انتكاسة وإضاعة، أو يكونون مقصرين أو سيئين في بقية النواحي التي ليس لهم فيها تبريز وشهرة: فيكون الخطيب البليغ جباناً شحيحاً، ويكون الفاتح الشجاع فاسداً ظالماً منتهكاً للحرمات والأموال والأعراض، ولكنه لمعت فيه مزية واحدة أورثته شهرة غطَّت معايبه الأخرى وصرفت الأنظار عنها وفقاً للقانون النفسي في توجيه أنظار الرائين وانتباههم.

أما أن يكون المرء عظيماً في الشجاعة، عظيماً في الحرب، عظيماً في السِّلْم، عظيماً في العدل، عظيماً في الصدق، عظيماً في العقل وفي الحزم والحكمة والتدبير، عظيماً في الأخلاق الشخصية ظاهراً

وباطناً في السر والعلن، عظيماً في العلم، عظيماً في الجود وفي الزهد وفي التجرد والإخلاص والإيثار وحب الخير للغير، عظيماً في معرفة داء الحياة ودوائها، عظيماً في البلاغة وجوامع الكلم، عظيماً في التشريع والقضاء، إلى غير ذلك من ميادين العظمة، بحيث يكون هو الشاب المثالي منذ شبابه، والأمين المثالي، والتاجر المثالي، والصديق المثالي، والزوج المثالي، والأب المثالي، ثم القائد المثالي، والمحارب المثالي، والمربي المثالي. . . . فإن مثل هذه العظمة الشاملة هي فوق مراتب العظماء!! إنها عظمة محمد ﷺ النبي العربي خاتم الأنبياء. و ﴿ الله أعْلَمُ حَيْثُ يجعلُ رسالته ﴾.

* * *